وحي القبور (١)

ذهبتُ في صُبح يوم عيد الفطر أحملُ نفسي بنفسي إلى المَقْبَرَة ، وقد مات لي من الخواطرِ مَوْتَى لا مَيِّتٌ واحدٌ ، فكنت أمشي وفيَّ جِنَازَةٌ بِمُشَيِّعِيْها ؛ من فكرٍ يَحملُ فكراً ، وخاطرٍ يَتْبَعُ خاطراً ، ومعنى يَبكي ، ومعنىً يُبْكَىٰ عليه .

وكذلك دأبي كلما انحدرتُ في هذه الطريق إلى ذلك المكان الذي تأتيه العيونُ بدموعها ، وتمشي إليه النُّفوسُ بأحزانِها ، وتجيء فيه القلوبُ إلى بقاياها . تلك المقابرُ التي لا يُنَادَىٰ أهلُها مِن أهليهم بالأسماء ، ولا بالألقاب ، ولكن بهذا النِّداء : يا أحبابَنَا ! يا أحزانَنا !

ذهبتُ أزورُ أمواتي الأعزَّاء ، وأتَّصِلُ منهم بأطراف نفسي ؛ لأحيا معهم في الموت ساعةً ، أَعْرِضُ فيها أمرَ الدُّنيا على أمر الآخرة ، فأنسى ، وأذكر ، ثُمَّ أنظرُ ، وأعتبرُ ، ثُمَّ أتعرَّف ، وأتوسَّم ، ثُمَّ أَسْتَبْطِنُ ممَّا في بطن الأرض ، وأستَظْهِرُ ممَّا على ظهرها .

وجلستُ هناك أُشْرِفُ من دهرٍ على دهرٍ ، ومن دنيا على دنيا ، وأخرَجَتِ الذَّاكرة أفراحَها القديمة ؛ لتجعلَها مادةً جديدةً لأحزانها ؛ وانفتح لي الزَّمنُ الماضي ، فرأيتُ رجعةَ الأمسِ ، وكأنَّ دهراً كاملاً خُلق بحوادثه ، وأيامِه ، ورُفع لعينيَّ ، كما تُرفَع الصُّورةُ المعلَّقةُ في مقدارها .

أعرف : أنَّهم ماتوا ، ولكنِّي لم أشعر قطُّ إلا أنَّهم غابوا ؛ والحبيبُ الغائبُ لا يتغيَّرُ عليه الزَّمانُ ، ولا المكانُ في القلب ؛ الذي يحبُّه ؛ مهما تَراخَتْ به الأيام ، وهذه هي بقيةُ الرُّوح إذا امتزجتْ بالحبِّ في روحٍ أخرى : تترك فيها ما لا يُمحَى ؛ لأنها هي خالدةٌ لا تُمحَى .

ذهب الأمواتُ ذَهَابَهم، ولم يقيموا في الدُّنيا؛ ومعنى ذلك: أنَّهم مرُّوا بالدُّنيا ليس غير ، فهذه هي الحياةُ حين تعبِّر عنها النَّفسُ بلسانها، لا بلسان حاجتها وحِرصها .

(١) أنشأها في صبيحة يوم العيد . وانظر « عود على بدء » من كتاب (حياة الرافعي) . (س) .

الحياةُ مدَّةُ عمل ، وكأنَّ هذه الدُّنيا بكلِّ ما فيها من المتناقضات إنْ هي إلا مَصْنَعٌ يُسَوَّغُ كلُّ إنسانٍ جانباً منه ، ثمَّ يقال له : هذه الأداةُ ؛ فاصنع ما شئتَ ، فضيلَتك ، أو رذيلتَك .

* * *

جلستُ في المقبرة ، وأطرقتُ أفكِّر في هذا الموت . يا عجباً للنَّاس ! كيف لا يستشعرونه وهو يَهْدِمُ من كلِّ حيٍّ أجزاءً تحيط به قبل أن يهدِمَه هو بجملته ؛ وما زال كلُّ بُنْيانٍ من النَّاس به كالحائط المُسَلَّطِ عليه خَرابُه ، يَتَأكَّلُ من هنا ، ويتناثرُ من هناك !؟

يا عجباً للناس عجباً لا ينتهي ! كيف يجعلون الحياةَ مدَّةَ نزاعٍ ، وهي مدةُ عمل ؟! وكيف لا تبرحُ تَنْزُو النَّوازِي بهِم في الخلاف والباطل ، وهم كلَّما تَدَافَعوا بينهم قضيَّةً من النِّزاع ، فضربوا خَصْماً بخصم ، وردُّوا كيْداً بكيدٍ ، ثم جاء حكمُ الموت تكذيباً قاطعاً لكلِّ من يقول لشيء : هذا لي ؟

أمَا واللهِ : إنَّه ليس أعجبُ في السُّخرية بهذه الدُّنيا من أن يُعطَى النَّاسُ ما يملكونه فيها لإثبات : أنَّ أحداً منهم لا يملك منها شيئاً ؛ إذ يأتي الآتي إليها لحماً ، وعظماً ، ولا يرجع عنها الرَّاجعُ إلا لحماً ، وعظماً ، وبينهما سفاهةُ العظمِ واللَّحمِ حتَّى على السِّكِّين القاطِعة .

تأتي الأيَّامُ ، وهي في الحقيقة تَفِرُّ فِرارَها ؛ فمن جاء من عمرِه عشرون سنةً فإنَّما مضت هذه العشرون من عمره . ولقد كان ينبغي أن تُصَحِّحَ أعمالُ الحياة في النَّاس على هذا الأصل البيِّنِ ؛ لولا الطِّباعُ المدخولةُ ، والنُّفوسُ الغافلةُ ، والعقولُ الضَّعيفةُ ، والشَّهواتُ العارمة ؛ فإنَّه ما دام العمرُ مُقبِلاً مُدْبِراً في اعتبارٍ واحدٍ ؛ فليس للإنسان أن يتناولَ من الدُّنيا إلا ما يُرضيه محسوباً له ، ومحسوباً عليه في وقتٍ معاً ؛ وتكونَ الحياةُ في حقيقتها ليست شيئاً إلا أن يكونَ الضَّميرُ الإنسانيُّ هو الحيَّ في الحيِّ .

* * *

وما هي هذه القبور ؟ لقد رجعتْ عند أكثر النَّاس مع المَوْتَى أبنيةً ميتةً ؛ فما قطُّ رأوها موجودةً إلا لينسَوْا : أنَّها موجودةٌ ؛ ولولا ذلك من أمرهم ؛ لكان للقبر معناه الحيُّ المُتَغَلْغِلُ في الحياة إلى بعيدٍ ، فما القبرُ إلا بناءٌ قائمٌ لفكرة النِّهاية ،

والانقطاع ؛ وهو في الطَّرَف الآخر رَدٌّ على البيت الَّذي هو بناءٌ قائمٌ لفكرة البَدْء ، والاستمرار ؛ وبين الطَّرفين المَعْبَدُ ، وهو بناءٌ لفكرة الضَّمير ؛ الذي يحيا في البيت ، وفي القبر ، فهو على الحياة والموتِ كالقاضي بين خَصمين ، يُصْلح بينهما صُلحاً ، أو يَقضي .

القبرُ كلمةُ الصِّدق مبنيةً متجسِّمةً ، فكلُّ ما حولها يَتَكَذَّبُ ويتأوَّل ، وليس فيها هي إلا معناها لا يَدْخُلُه كذبٌ ، ولا يعتريه تأويلٌ . وإذا ماتت في الأحياء كلمةُ الموت من غرورٍ ، أو باطلٍ ، أو غفلةٍ ، أو أثَرةٍ ، بقي القبرُ مُذَكِّراً بالكلمة ، شارحاً لها بأظهرِ معانيها ، داعياً إلى الاعتبار بمدلولها ، مُبيِّناً بما ينطوي عليه : أنَّ الأمر كلَّه للنِّهاية .

القبرُ كلمةُ الأرض لمن ينخدعُ ، فيرى العمرَ الماضيَ كأنَّه غيرُ ماضٍ ، فيعملُ في إفراغ حياته من الحياة[1] بما يملؤها من رذائله ، وخسائسه ، فلا يزال دائِباً في معاني الأرض ، واستجماعِها ، والاستمتاع بها ، يتلو في ذلك تِلْوَ الحيوانِ ، ويقْتَاسُ به ، فشريعتُه جَوْفُه ، وأعضاؤه ؛ وترجعُ بذلك حيوانيَّتُه مع نفسه الرُّوحانيَّة ، كالحمار مع الذي يملكُه ، ويعلفُه ، ولو سُئل الحمارُ عن صاحبه من هو ؟ لقال : هو حِماري .

القبرُ على الأرض كلمةٌ مكتوبةٌ في الأرض إلى آخرِ الدُّنيا ، معناها : أنَّ الإنسانَ حيٌّ في قانون نهايته ، فلينظرْ : كيف ينتهي .

* * *

إذا كان الأمر كلُّه للنِّهاية ، وكان الاعتبارُ بها ، والجزاء عليها ، فالحياةُ هي الحياةُ على طريقة السَّلامة لا غيرِها ؛ طريقةِ إكراه الحيوان الإنسانيِّ على ممارسة الأخلاقيةِ الاجتماعيَّة ، وجعلِها أصلاً في طباعه ، ووزن أعمالهِ بنتائجها التي تنتهي بها ؛ إذ كانت روحانيَّتُه في النِّهايات ، لا في بداياتها .

في الحياة الدُّنيا يكون الإنسانُ ذاتاً تعملُ أعمالَها ، فإذا انتهت الحياةُ ؛ انقلبت أعمالُ الإنسان ذاتاً يخلَدُ هو فيها ، فهو من الخير خالدٌ في الخير ، ومن الشَّرِّ هو خالدٌ في الشَّرِّ ، فكأنَّ الموتَ إنْ هو إلا ميلادٌ للرُّوح من أعمالها ؛ تولد مرَّتين : آتيةً ، وراجعة .

---

(١) أي من إنسانية الحياة . (ع) .

وإذا كان الأمرُ للنِّهاية ؛ فقد وجب أن تَبطُلَ من الحياة نهاياتٌ كثيرةٌ ، فلا يُترك الشَّرُّ يمضي إلى نهايته بل يُحسَم في بدئه ، ويُقتل في أوَّل أنفاسه ، وكذلك الشَّأنُ في كل ما لا يَحسنُ أن يبدأ؛ فإنَّه لا يجوز أن يمتدَّ، كالعداوة، والبغضاء، والبُخل، والأَثرة ، والكبرياءِ ، والغرور ، والخداع ، والكذب ، وما شابكَ هذه ، أو شابَهَهَا ، فإنَّها كلُّها انبعاثٌ من الوجود الحيوانيِّ ، وانفجارٌ من طبيعته ؛ ويجب أن يكون لكلٍّ منها في الإرادة قبرٌ كي تَسْلَم للنَّفس الطَّيبة إنسانيَّتُها إلى النِّهاية .

* * *

يا من لهم في القبور أموات !

إنَّ رؤيةَ القبر زيادةٌ في الشُّعور بقيمة الحياة ، فيجب أن يكونَ معنى القبر من معاني السَّلام العقليِّ في هذه الدُّنيا .

القبر فمٌ ينادي : أسرعوا ، أسرعوا ! فهي مدَّةٌ لو صُرِفت كلُّها في الخير ؛ ما وَفَتْ به؛ فكيف يضيع منها ضَياعٌ في الشَّرِّ ، أو الإثم ؟ لو وُلد الإنسان ، ومشى، وأيفَعَ ، وشبَّ ، واكتَهَلَ ، وهَرِمَ في يومٍ واحدٍ ، فما عساه كان يُضِيع من هذا اليوم الواحد ؟ إنَّ أطولَ الأعمار لا يراه صاحبه في ساعة موته إلا أقصرَ من يوم .

ينادِي القبر : أصلحوا عيوبكم ، وعليكم وقتٌ لإصلاحها ؛ فإنَّها إن جاءت إلى هنا كما هي ، بقيت هي إلى الأبد ، وتَركَها الوقتُ ، وهرب .

هنا قبرٌ ، وهناك قبرٌ ، وهنالك القبرُ أيضاً ، فليس ينظر في هذا عاقلٌ إلا كان نظره كأنَّه حكمُ محكمةٍ على هذه الحياة : كيف تنبغي ، وكيف تكون ؟

في القبر معنى إلغاءِ الزَّمان ، فَمَنْ يفهم هذا استطاع أن ينتصرَ على أيَّامه ، وأن يُسْقِطَ منها أوقاتَ الشَّرِّ ، والإثم ، وأن يُميتَ في نفسه خواطرَ السُّوء . فمن معاني القبر ينشأ للإرادة عقلُها القويُّ الثَّابت ؛ وكلُّ الأيام المكروهة لا تجد لها مكاناً في زمن هذا العقل ، كما لا يجد اللَّيلُ محلاً في ساعات الشَّمس .

ثلاثةُ أرواحٍ لا تَصلُح روحُ الإنسان في الأرض إلا بها :

روحُ الطبيعة في جمالها ، وروحُ المعبد في طهارته ، وروحُ القبر في موعظته .

* * *